

**القيم الإنسانية وإنسانيّة القيم في أدب العصر الجاهلي
حكّم الشعراء نموذجاً**

**Human values and the humanity of values in the literature of the
pre-Islamic era**

Wisdom of poets as a model

جهاد فيض الإسلام

الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربيّة وآدابها بجامعة طهران

Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature,
University of Tehran

Jahad feizoleslam, ph.D

Email :feyzolaslam@ut.ac.ir

الملخص

تعد القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي أحد المصادر التراثية الغنية في مجال الفكر والأدب والأخلاق، وأنا لست أدعي أنني قد أصبت في هذا البحث تماماً، ولم يسبقني أحد إليه، كل ما في الأمر أن الدراسة قد حاولت أن تتأمل في هذه القيم الإنسانية وتُمنع النظر فيها أكثر، وبشكل خاص لدى " شعر الحكيم" التي زخر بها هذا التراث الشعري، وما طرحه شعراء ذلك العصر من قيم إنسانية وحكمة، وتجربة، وفكرة، وفلسفة تأملية، هادفين تقريب الإنسان من العقلانية، محاولة لمعرفة وفهم وجوده كإنسان، ودرك الحياة البدوية القاسية، التي تشبنت في فكر ذلك الإنسان وعاشها مستأنساً بها، وما هذا إلا ليساعده على تنمية الحضرة، والأخذ بيده نحو الصواب، ويعتقد الباحث أن هذا الجانب له الأهمية في الدراسة الأدبية، والإنسانية معاً، حيث حاول البحث أن يلفت النظر إليه، وقد أظهرت النتائج أنّ الحكمة والفلسفة التأملية في الشعر الجاهلي، كان لها الحظ الأوفر في الرقي والسعادة البشرية وتحضرها.

الكلمات الافتتاحية

القيم الإنسانية، شعراء الحكيم، الفكر، الجاهلية، الإنسانية

Abstract

The human values in pre-Islamic poetry are one of the rich heritage sources in the field of thought and literature, and I do not claim that I have been right in this research, and no one has preceded me in it, all that is, the study has tried to stop and reflect on him, and in particular with "The Poetry of Wisdom" This poetic heritage abounded in, and the wisdom, experience, idea, and contemplative philosophy presented by poets of that era, aiming to bring man closer to rationality, an attempt to know and understand his existence as a human being, and to realize the harsh Bedouin life, which clings to his mind, to humiliate him and live it. From the negativity of illusions and superstition, and this is only to help him develop civilization, and take him towards the right path, and we believe that this aspect is important in the literary and human studies together, where the research tried to draw attention to it, and the results showed that the wisdom and contemplative philosophy in poetry, in poetry She had the best luck in the advancement and civilization of humanity

Keywords

Human values, wisdom poets, thought, pre-Islamic era, humanity

المقدمة

الحكمة لدى الجاهلي هي جزء من الفلسفة التأملية لتلك الحياة، حكمته لا تسعى لإدراك الوجود وتعليله وتحليله فلسفياً علمياً، بل تسعى لإدراك المجتمع القبلي البدوي والسعي نحو الواقع الأفضل، الذي يحقق للإنسان الجاهلي السلامة والعيش المناسب في تصرفاته اليومية.

ولا شك أنّ الصحراء الشاسعة والجبال الشامخة واوديتها الوعرة، كان لها الحظّ الأوفر في تنمية فكر الإنسان الجاهلي، لأنّ كل ما في الصحراء وامتدادها، والسّماء وصفائها، والجبال وشموخها، والحياة وقساوتها، يدعو الإنسان للفكر والتأمل، وللعقل والتدبّر، في الآفاق والأنفس، في الخلق والخالق، في الموت والحياة، في الطبيعة وما فيها، ومَن فيها، وما عليها، ومن خلال مرور الزمان وتصرّمه، نضج العقل الجاهلي بعض الشيء، وابتعت جذور العقلانية في دماغه.

الفكر الإيجابي والعقلية الإبتدائية عند عرب الجاهلية، كاد ينحصر في بعض الحكم والخطرات والنزوات النفسية، والتجارب التي اكتسبها الجاهلي، وتأمّله بالحياة الإنسانية، ورحلات البيداء القاسية، وهو يراعى أبله التي لا يمتلك غيرها، وهذا ما دل عليه شعرهم الذي قد وصل لنا.

الدراسات السابقة

الشعر الجاهلي أحد المصادر التراثية الغنيّة في مجال الفكر والأدب، وعلى الرغم من تعدد الدراسات فيه بشكل عام، أما فيما يخصّ دراسة "الحكمة" في الشعر الجاهلي، ما زالت ضعيفة جداً، بل لم أعتز على دراسة مستقلة فيه، غير بعض ما جمع من أبيات شعر متناثرة ومبعثرة وبعض المداخلات اليسيرة على مواقع النّت، وأنا لست أدعي أنني قد أصبت في هذا البحث، ولم يسبقني أحد إليه، كل ما في الأمر أنّ الدراسة قد حاولت محاولة متواضعة، أن تقف وقفة تأمل عنده، لتساهم في هذا النوع من الدراسات الأدبية.

أهمية الدراسة

يبدو أنّ الحكمة في الشعر الجاهلي، والعقلانية الشعرية فيه، ساعدة بشكل واضح على حفظ الشعر القديم، ولعلّه تعد من العوامل الأساسية لذلك.

ولم نذهب جزافاً إذا قلنا، حُفِظ الشعر وانتقاله من صدر إلى آخر، لما فيه من حكم وعبر ومواعظ وفلسفة، سهّلت حياة الجاهلي، وذلك لعدم وجود نظام اجتماعي أو سياسي يستمد منه، ويستند إليه في حياته اليومية، غير ما عرف أو حفظ من حكم وشعر وتراث، يستلهم منه الخبرة والنصح والقيم الأخلاقية والنبيل الإنسانية.

تنبع أهمية الدراسة من أهمية الحكمة ومساهمتها في نضج المجتمع القبلي الجاهلي، بل المجتمع البشري والحضارة الإنسانية، ومن هنا تتضح أهميتها في الشعر، ومكانتها لدى الشعوب، وهذا ما سيفضي إليه البحث من نتائج، نحو:

- دراسة ظاهرة الحكمة والفلسفة التأملية في الشعر الجاهلي، وتلمس بعدها التربوي والأدبي، وهذه التوليفة ليست مستغربة، إذ العلاقة بين علم الأدب والعلوم التربوية علاقة وطيدة.

- تبين أهم مضامين العقلانية والحكم والفلسفة التأملية الشعرية.

- الوقوف عند مكانة شاعر الحكمة وأثره في الحضارة البشرية.

أهداف الدراسة ومشكلة البحث

تتبع الباحث مصادر الشعر القديم ليقف على بعض شعر العقلانية والحكمة فيه، وما اختلج في فكر الجاهلي البدوي من الفلسفية التأملية، والخطرات والنزوات النفسية، التي تفجرت في شعره وعلى اختلاف مشاربه، شدة وضعفاً، من شاعر إلى آخر، من بيئة إلى أخرى.

فحكمة زهير بن أبي سلمى تختلف عن حكمة وفلسفة طرفة بن العبد التأملية، وهو يختلف عن الأفوه الأودي، والأخير يختلف عن غيره قطعاً. ويظهر أن منشأ هذا الاختلاف هو الزمان والمكان ولبينة والمجتمع لكل شاعر. ولاشك أن مصدر الحكم والفلسفة عند كل شاعر، وعمقها ورسالتها وأثرها هي التجارب التي عصفت به، وبمقدار بصيرته النافذة، وتأمله الماضي والحاضر والمستقبل، وحدة ذكائه وفطنته، واستيعابه للأمور التي تحيط به. لذا تهدف الدراسة إلى تبيين وتحديد وتحليل هذه الأمور وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أسئلة البحث

- لماذا هذا البحث، ماذا يعنيننا موضوع الحكمة في الأدب، وما أهمية الشعر الجاهلي، أليس هذه المسألة شأناً أدبياً يهمّ عرب ذلك العصر وحده؟

- ماذا يمكن أن نحني أدبياً وثقافياً وإنسانياً من دراسة موضوع الحكمة في الشعر الجاهلي، وكيف يمكن أن يدرس هذا الموضوع؟

- ما النتائج الأدبية والإنسانية والتربوية، التي يمكن أن تترتب على هذه الدراسة؟

منهج الدراسة

للإجابة عن أسئلة الدراسة اتبع الباحث بعد مراجعة الأدبي والشعري، المنهج التاريخي التحليلي، ولم يغفل عن اعتماد المنهج الوصف التحليلي، إذ يتيح له القدرة على وصف أثر الحكمة في المجتمع الجاهلي وتحليل دلالاتها، التي تزيده بمعلومات تمكنه من التحليل واتخاذ القرار فيما يسفر عنه البحث من نتائج.

خطة البحث

تشتمل هذه الدراسة على مقدمة علمية منهجية تحدد الباحث فيها بعد تمهيد عن الدراسة السابقة وأهمية البحث وأهدافه ومشكلة وأسئلة الدراسة، والمنهج المتبع في البحث ثم الأبحاث التالية:

- المبحث الأول: تحديد معنى الحكم والحكمة.
- المبحث الثاني: الفرق بين الحكمة والفلسفة.
- المبحث الثالث: رواد شعر الحكم.
- المبحث الرابع: صراع الحكمة والخرافة.
- المبحث الخامس: الحكمة وجدلية الحياة.
- المبحث السادس: جدلية الموت.

- المبحث السابع: حكمة المال.
- المبحث الثامن: الجاهلي وحكمة السياسة.
- المبحث التاسع: الحكم التربويّة.
- المبحث العاشر: الصبر والحكم.
- الخاتمة والنتائج.
- فهرس المصادر والمراجع.

- المبحث الأول
- تحديد معنى الحكم والحكمة

الحكمة لغة

معنى الحكمة: جاء في اللغة أحكم الأمر أتقنه فاستحكم (١)، و يقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب. والحكيم هو المتقن للأمر. وجاء في المعجم الفلسفي (٢)، الحكمة يعني العلم والفهم، والكلام الموافق للحق، وصواب الأمر وسداده.

الحكمة دلالة

الحكمة معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة. ويظهر أنّ للحكمة معنيين: أحدهما نظرياً، والآخر عملياً، أما البعد النظري فيعني المعرفة العميقة والإدراك الدقيق، وغايتها بلوغ الحق المجرد. وأما البعد العملي للحكمة، فالمقصود منه تطبيق القيم التي وصل العقل إلى معرفتها، ليتمكن الإنسان من الوصول إلى السعادة والطمأنينة، وغايتها تطبيق المبادئ والقيم لأنها خير، والخير أولى أن يتبع، فكل من البعدين يتلخص بالعلم والعمل.

فإذا كان الإنسان عالماً غير عامل بما يوجبه علمه، أو كان عاملاً غير عالم بمبادئ علمه لم يكن حكيماً. ويمكن أن تعرف الحكمة في الشعر بأنها تلخيص الفكر العميق باللفظ الدقيق في دلالاته على المعنى. فالحكمة هي: عبارة أوجز فيها تضمين الأبيات الشعرية القليلة معاني جليلة" بتصرف (٣)، أيضاً قالوا في الحكمة: الحكمة فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي (٤).

وقيل: إنّها نظرة عميقة عملية مباشرة إلى معاني الأشياء وأغراضها، تصدر عن ذكاء حاد نفاذ دقيق الملاحظة، يُستمد من تجارب الحياة ومن مخالطته العملية بالحياة اليومية" وتسمّى الكلمة المشتملة على هذه النظرة "حكمة" ومن هذا قيل "أن من الشعر لحكمة.

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢ (بيروت: دار صادر، د.ت)، ص ١٤٣.

(٢) وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، (القاهرة: دار قباء الحديثة، ٢٠٠٧م)، ص ٢٨٥.

(٣) أمين، أحمد، فيض خاطر، مقالات أدبية، ج٨، (مصر: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢م)، ص ٢٢١.

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٢، (بيروت: ط٧، دار الكتاب العربي، ١٤٢٣م)، ٤٤٩.

إذن تعريف الحكمة وتحديد معنى ها، لعله من أصب الأمور، فشأنه في ذلك شأن كثير من المصطلحات والمفردات المعنوية العامة، كالعدل، والعدالة، والكمال، والجمال، والحرية، والشجاعة فإنها تعرّف وفق خصائصها المميّزة لها، ولا تعريف دقيق لها^(٥).

المبحث الثاني

الفرق بين الحكمة والشعر والفلسفة

-إنّ الفلسفة تفكير منظم ميوّب، تبنى مسائله على أساس منطقي، أمّا الحكمة فنظرات خاطفة من هنا وهناك.

-طابع الفلسفة طابع تحليلي، تأخذ الفكرة وتحللها وترجعها إلى أصولها وتبيّن نتائجها، وطابع الحكمة تركيبية يركز على التجارب في جملة ويجمع خلاصة.

-الفلسفة تعتمد على التأمل، والتفكير العقلي، والقانون المنطقي، والحكمة تعتمد على الإلهام، والاستعداد الشخصي.

-أسلوب الفلسفة أسلوب الخاصة وعقلية الخلاصة، فلا عجب أن يلقّها والتعقيد، أمّا الحكمة فتثقافة شعبية يدرکها الخاصة والعامة على قدر مواهبهم، ومن أجل هذا صيغت الفلسفة صياغة معقدة، وصيغت الحكمة صياغة خفيفة رشيقة.

-الحكمة مركزها الأمم الشرقية، كالمصريين، اليابانيين، الصينيين، الهنود، الإيرانيين، العرب. ولأنّ ظهور الأديان هو الشرق، فالحكمة أقرب إلى الأديان من الفلسفة، ولذا قيل الشرق موطن الإلهام والحكمة.

-وموطن الفلسفة هو الغرب، وهذا مدعى يحتاج إلى دليل وتعليل.

وللمقارنة والمقايضة انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه، "كتاب السلطان"، أيضاً انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة، باب السياسة، ثم قارنها مع كتاب السياسة لأرسطو يظهر الفرق جلياً بين الحكمة والفلسفة^(٦).

الحكمة والشعر

يعتبر أدب الحكمة من الآداب القديمة، التي عرفها العرب وعبروا عنها قديماً في الأشعار، والوصايا، والخطب إلى أن تطوّر ذلك النمط من الأدب على نحو، ظهر خلاله في الأعمال السردية، سواء في القصص أو الروايات أو المسرحيات...

وما بين القديم والحديث ظهرت العديد من التغيّرات على شكل ومضمون. ويعقد الأديب والناقد المصري يوسف نوفل مقارنة حول أدب الحكمة بين القديم والحديث موضحاً "أن الحكمة في

(٥) أمين، أحمد، فيض الخاطر، مقالات أدبية، ج٨، ص ٢١٩.

(٦) أمين، أحمد، فيض الخاطر، مقالات أدبية، ج٨، (مصر: مؤسسة هنراوي، ٢٠١٢م)، ص ٢٢٠.

الأدب القديم كانت مباشرة وخالصة وواضحة، وأمّا في الآداب الحديثة صارت مقنّعة ورامزة وغير مباشرة، ولكنها أكثر بلاغة من الحكم المباشرة القديمة

"تراجع حضور الحكمة في الآداب الحديثة بشكل لافت، بحيث تخلّى المبدع عن الحكم المباشرة، وترك المساحة لخيال القارئ، يستنبط الحكمة من الواقع والتفاصيل بمتن عمله الإبداعي، لتأتي الحكمة في السياق وبصورة غير مباشرة، وتصير مسؤولية مشتركة ما بين مبدع يكتب، وقارئ يعمل عقله ويستنبط الحكمة. نقلاً عن: (٧).

المبحث الثالث: رواد شعر الحكم

أمّا الشعراء فقد أولى الحكمة أهميّة كبيرة، فأغلب حكماء عرب الجاهليّة، كانوا من الشعراء الفصحاء، الذين شهد لهم بالشاعريّة والحكمة معاً، وهذا المزيج الفكري من الشعر والحكمة، جعل من شعرهم ونثرهم جگماً، تُحفظ وتُردّد أصداءها عبر العصور، وشعر الحكمة في العصر الجاهلي، هو الشعر الذي لخصّ به الشاعر تجربته في الحياة،

كما هو عند زهير بن أبي سلمى، وليبيد، وطرفة بن العبد، والأفوه الأودي، وأكثم بن صيفي، وقُيس بن ساعدة، وعترة بن شداد، وعمرو بن معديكرب وغيرهم، ومن الأسباب التي جعل عرب البادية أن يهتموا بالحكمة هو عدم وجود أنظمة حكم اجتماعية ونظم إدارية تساعدهم لحل مشاكلهم.

تنوع الحكم

تنوّعت مناحي الحكم تبعاً لتنوّع مناحي الحياة، من حكم خلقية، ودينية، والاقتصادية، وسياسية، واجتماعية، وفنية، ومع الأسف أنّها لم تدرس في الأدب العربي دراسة عميقة، تكافئ ما لها من أهميّة، كما تنوّع شكل صياغتها؛ فأحياناً تكون في شكل جمل مركّزة رصينة جميلة، وأحياناً تكون في شكل قصص قصيرة، وأحياناً في شكل حوار ظريف (٨)، والشعر العربي مليء بالحكم من عهد زهير بن أبي سلمى إلى عهد إبي العتاهية وإلى الآن.

المبحث الرابع: صراع الحكمة والخرافة

لاشك أن الأدب العربي وأخص الشعر منه، قد "نبت في الصحاري والفلوات والمفاز الممتدة تحت سماء صافية لا ضباب يغشها، ولا غاب يكسو أرضها، لهذا جاءت لغة العصر الجاهلي صريحة الألفاظ واضحة الدلالة على المعنى.

وجاء شعرهم صريح المعاني والألفاظ، لا يعرف الغموض والرمز غالباً، غير أنّ الرهبة المخيمة على الصحراء والمفاز الشاسعة خوّفت الشاعر فضلاً عن غيره؛ فإذا هو يسمع عزيف شياطين الجن، ويرى الغيلان واشباح الهام والأرواح (٩).

هذا ومن ناحية أخرى نعلم جيّداً أن أعراب العصر الجاهلي شيئاً من العلوم الفلسفية والعقلية والمنطقية لتساعدهم على التفكير والتعليل لمعرفة الأمور واكتشاف عللها وأسبابها، ذلك حياتهم

(٧) الموقع، عالم الأدب، مدوّنة الكترونيّة، (٢٠٢٠م) <https://adab word.com> بتصرف.

(٨) الموقع، عالم الأدب، مدوّنة الكترونيّة، (٢٠٢٠م) <https://adab word.com> بتصرف.

(٩) طليحات، غازي والأشقر، عرفان، الأدب الجاهلي، (دمشق: دار الفكر، ط٢، ٢٠٠٧م)، ٣٩ بتصرف.

البدويّة وتنقلهم بحثاً عن العيش، حرّمهم الاستقرار في مكان مناسب، والعلم والتعلم وكسب المعرفة يحتاج إلى استقرار، كي يتسنى للإنسان البدوي تأمل الحياة ومعرفة العلل والأسباب، والتمييز بين الواقع والخرافة، وحينما لم يكن ذلك، أستولى العجز على درك البدوي لما يراه ويختلّه. لهذا تقلّقت الخرافة في فكره وأخذ يعتقد بالأوهام والأساطير وما تخيله واختره ذهنه وتفكيره.

الأوهام

إذا تصفّح الدارس لسجلات الشعر الجاهلي وأراد أن يقف عند السلبية الفكرية فيه، يجد لها الكثير من النصوص والمصاديق التي طغت على حياة أعراب الجاهلية وشعراءهم، وانعكست جلية في تلك السجلات القطورة منها: التطير، والتشاؤم، وحلول الأرواح، والإيمان بالغيلان، وخروج الهام من القبور، وعقد الرقي، وتأثير الغربان، والعين القاتلة، والإيمان بشرافت دماء الملوك والأشراف على غيرها، وانشاد الشعر على لسان الشياطين من الجن، وقس على هذا الكثير.

وحينما "جاء الإسلام اقتلع تلك المعاني التي تخالف تعاليمه، فعانى كثيراً وهو يحاول إرساء مهمته تلك، ولكن المعتقدات القديمة ما لبثت أن عادت إلى العقلية العربية، مما أنها كتبت إلى حين ولكنها لم تمت...ومن هنا تأتي أهمية استعراض تلك المعاني ورفضها لما فيها من سلبية في التفكير" (١٠).

المبحث الخامس: الحكمة وجدلية الحياة

إنّ مواقف شعراء الجاهلية تجاه جدلية الحياة والموت متباينة، وتباينها في قضية الحياة أكثر، اسباب هذا الاختلاف متعددة منها: عمر الشاعر ومنها الطبيعة التي نشأ فيها الشاعر، ومنها أسرته وقبيلته، منها رحلاته من البدو إلى الحضر أو العكس، منها فقره وغناؤه. فهذا التباين يختلف من شاعر إلى آخر، بساطتاً وعمقاً، قريباً وبعداً، فزهير ملّ الحياة ولكنّ طرفه بن العبد نظر إلى الدنيا نظرة لذة، فالدنيا عنده ليس إلا لذة الحياة، فعليه الاستمتاع بها مهما أمكن، كما هو حال الأعشى وامرؤ القيس، يقول طرفة:

فلولا ثلاثُ هُنَّ من عِشَةِ الفتي وجدّك لم أحفل متى قام عؤدي (١١).

فالحياة عند الشاعر ما هي إلا لهو ولعب، وعمره ليس طويلاً وعليه أن يبدر ويسرف قبل الموت، لأنه الفناء المحتم كما يراه هذا الشاعر الجاهلي.

ومن حكم الحذر من الموت لأجل الحياة، والوعد والوعيد قال أبو ذؤيب الهذلي:

أمنّ المنون وريبتها تتوجّع والدهر ليس بمعتبٍ من يجزّع
وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كلّ تميمية لا تنفّع

(١٠) الشعبي، علي، الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٢م)، ص ٦٢.

(١١) القرشي، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٩م)، ج ١، ص ٣٢٢.

والنفس راغبة إذا رغبته وإذا تُردُّ إلى قلبٍ تفتع^(١٢).

فالشاعر يرى الموت حقاً لا بد منه، فهو يستقبله ولا يرهبه، بل يلقاه بنفس راضية مرضية، لا يائسة، ولا آسفة، هذا إذا روض الإنسان نفسه وقنع بكل شيء وسلم أمره للقضاء والقدر والموت المحتم، ولذا عنده البكاء لا داعية له ولا يجدي نفعاً وما هو إلا تَجَعُّ وحزن. وفي حكم لبيد بن ربيعة تحذير النفس، وتنبهها، وإشعاراً بنهاية كل حي مما لا يخفى إذ قال:

ألا تسألان المرء ما ذا يُحاولُ أنحبُّ فيقضى أم ضلالٌ وباطلُ

فقولا له إن كان يقسيمُ أمره ألما يعظك الدهرُ أمك هابلُ^(١٣).

لقد حذر الإنسان من السير نحو سراب الباطل لأنه يزول وينتهي، وعلى العاقل أن يعتبر بمن مضى ومن كان قبله من الأمم ومن الآباء والأجداد ويتعظ من صروف الدهر والزمان لأنه لم يرحم أحد، فأين وأين وأين... لا يدوم إلا الله وكل نعيم ومال وثروة بل وإنسان وغيره إلى زوال.

فهو الموت الذي تصفر له الوجوه وترتعد منه الفراسخ وترتعش من شدته الأصابع، وحينئذ يستعد الإنسان لحصاد ما زرع، وجنى ثمار ما غرس إن خلوا فخلو، وإن مرأ فمر.

وكلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بينهم دويهيته تصفرُّ منها الأنامِلُ

وكلُّ امرئٍ يوماً سيعلمُ سعيه إذا كشفت عند الإله المحاصيلُ^(١٤).

تحلو الحياة دون ضيم

الحياة عند صعاليك العصر الجاهلي هي الصراع لإثبات الذات وإثبات الإنسانية، ونفي العبودية، ولأجل هذا بذلوا كل ما عندهم من غال ورخيص، وتحملوا كل شيء في سبيل إعادة الإنسان إلى إنسانيته، وغير هذا فهو الموت الحقيقي، فالموت في فكرهم هو موت الفضائل والقيم الإنسانية، الموت الواقعي هو الموت المعنوي لا الموت الجسمي، قال الشنفرى:

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فأذهلُ

وأستفُّ ترُبَّ الأرض كيلا يرى له علي من الطول امرؤ منطولُ^(١٥).

المبحث السادس: جدلية الموت

(١٢) القرشي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٣.

(١٣) لبيد، بن ربيعة العامري، الديوان، (بيروت: دار صادر، د.ت)، ص ١٣١.

(١٤) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(١٥) الشنفرى، الديوان، إعداد وتقديم، طلال حرب، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٢، ٢٠٠٧م) ص ٥٨.

يظهر أنّ أبرز المناحي التي دارت حولها موضوعات الحكم، في العصر الجاهلي هي جدلية الحياة والموت، وهذه الجدلية شغلت فكر إنسان الجاهلية وخاصة الشعراء، وليس عند العرب لوحدهم، بل هذه الجدلية كانت وما زالت هي الشغل الشاغل لفكر شعوب العالم والأديان والمذاهب بأنواعها ومختلف مشاربها الفكرية والعقلية، من شاعر وفيلسوف وحكيم وأديب.

السؤال الذي يطرح نفسه، هو كيف تصوّر شعراء الجاهلية الحياة والموت في شعرهم؟ وما هي النتائج الإيجابية أو السببية التي عكسها شعرهم؟

يبدو أنّ قضية الموت شغلت ذهن الشاعر الجاهلي أكثر ممّا شغلت الحياة فكره، وذلك لأنّ الخطبوط الموت عنده قوّة مجهولة البداية والمصدر، ومجهولة النهاية والغاية، فانفصال الروح عن الجسد، لا يعرف الجاهل عنه شيء، ويكتنف فكره الغموض والحيرة والعجز عن درك الواقع كما نرى هذه الجدلية عند عبيد بن الأبرص:

وكلُّ ذي غَيْبَةٍ يُؤُوبُ و غائبُ الموت لا يُؤُوبُ

والمرءُ ما عاش في تكذيب طولُ الحياة له تعذيب^(١٦).

فحياة الإنسان في ذهن عبيد ملازمة للرحيل والسفر، فهو من رحلة إلى أخرى، ولكن الرحلة الأخيرة، أخذ الشاعر يطيل التأمّل فيها، يجادلها عقلاً، ولكنه يخفق في النتيجة، فأهم شيء اكتشفه هو حقيقة الموت والفناء. والحياة كلها كاذبة، وعلى العاقل أن يكون على استعداد للرحلة الأخيرة التي لا بد منها إلى عالم مجهول كما يقول عبيد.

وهذا ما صرّح به قس بن ساعدة أيضاً، حين أمعن النظر في قوافل سفر الموت تذهب دون عودة ولا تفرق بين صغير وكبير تيقن بنهاية كل الإنسان قائلاً:

في الدّاهبين الأوّلين ن من القرون لنا بصائر

لمّا رأّت موارداً للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إلـيَّ ولا من الباقيين غابر

أيقنت أنّي لا محـا لة حيث صار القوم صائر^(١٧).

فالإنسان هو الذي يقرر وقت رحلاته إلّا الرحلة الأخيرة، فإنه لا يعلم بزمانها ولا مكانها، وتبقى جدلية الموت ولأحياة دون نتيجة وبعد كل هذه التأمّلات الفلسفية والنزعات والخطرات النفسية، وهو يرى عنقه قد طوق بحبل شدّ طرفه بعنقه والطرف الآخر بيد الموت كما قال طرفة بن العبد:

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً، ما أبعد اليوم من غدٍ

(١٦) القرشي، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، ج ٢، ص ٣٥.

(١٧) طليعات، غازي والأشقر، عرفان، الأدب الجاهلي، ص ٢٥٤.

لعمرك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى لكا لَطَوَّلَ المرخَى وثنياءُ في اليد^(١٨).

وأما زهير بن أبي سلمى فجدلّية تختلف عنده عن غيره، حيث لا يرى للموت نظاماً ولا خطة واضحة، فهو فاقد البصر يسير ويتخبّط كالناقة العمياء المتوحشة، يهلك من أصابه ويعمر من فلت ونجا من برائينه وتخلص منه. إذ يقول:

رأيت المنايا خَبَطَ عشواءَ مَنْ نُصِبَ ثُمْتُهُ، ومن تُخْطىءُ يُعَمَّرُ، فيهِرَمَ

وأعلمَ عِلْمَ اليومِ، والأمسِ، قَبْلَهُ ولكِنِّي، عن علم ما في غَدِ عَمِي^(١٩).

يبدو أنّ رؤية زهير هذه، تتناقض مع رؤيته التي تدل على إيمانه بالله تعالى، والبعث، قال:

فأقسمتُ بالبيتِ، الذي طاف حوله رجالٌ بنوه، من فُرَيْشِ، وجُرهم^(٢٠).

ولعلّ زهير شأنه شأن بقية شعراء الجاهلية، أنهم استسلموا لجدلية الموت وقوته القاهرة، ولكنهم لم يدركوا مصدرها. وهذا الذي جعل البعض منهم مذذب العقيدة، ومتناقض الفكر والرؤية، كما يدل عليه شعر زهير أيضاً:

بدا لي أنّ الناسَ تفنى نفوسهم وأموالهم، ولا أرى الدَّهرَ فانيا^(٢١).

وهل نهاية الإنسان الخلود أو الفناء؟ هي الفكرة والعقيدة التي تحدد إيمان البشر وعدمه، وتحدد رؤيته وسلوكه في الحياة أيضاً:

سئمتُ تكاليفَ الحياة، ومَنْ يَعِشْ ثمانينَ حولاً، لا أبا لك، يسأم^(٢٢).

"فزهير ملّ الحياة بعد ثمانين سنة، وخيّل إليه أنها عبء ثقيل لا يطاق احتمالها، وهو وإن لم يتمّن الموت لم يكن يقبل على الدنيا إقبال الراغب، الحريص على امتدادها"^(٢٣)، وأما الأفوه الأودي فهو يرى الحياة كلها بنعيمها، وحلوها ومرّها، ما هي إلا ظلاً زائلاً، وعارية مستردة قائلاً:

إنّما نعمة قوم متعةٌ وحياة المرء ثوبٌ مستعار^(٢٤).

يظهر أنّ الأكثرية من شعراء العصر الجاهلي قد آمنت بالبعث والحشر والحساب والثواب والعقاب بعد الموت، إذ تصوّر البعض منهم حياة هي تشبه الحياة الدنيا.

المبحث السابع: حكمة المال

(١٨) القرشي، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، ج ١، ٣٢٥.

(١٩) الشنتمري، الأعلم، شعر زهير، تحقيق، فخر الدين، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢م)، ص ٢٥.

(٢٠) المصدر السابق، ص ١٨.

(٢١) طليمات، غازي والأشقر، عرفان، الأدب الجاهلي، ص ٢٥٥.

(٢٢) الشنتمري، الأعلم، شعر زهير، تحقيق، فخر الدين، ص ٢٥.

(٢٣) طليمات، غازي والأشقر، عرفان، الأدب الجاهلي، ص ٢٥٦.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٢٥٧.

وقف الشاعر الجاهلي عند قدرة الثروة والمال، وما له من سلطان ومكانة في الحياة الفردية والمجتمع الجاهلي، فالفقر يجعل القويّ ضعيفاً، الضعيف قوياً، فيقطع أواصر الأقرباء، يصير الفقير عالة وعبئاً يشمئز منه، كما يراه عروة بن الورد إذ قال:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكى الفقرَ أو لامَ الصديقَ فأكثر
وصار على الأدينين كلاً وأوشكت صلاتُ ذوي القربى له أن تنكراً^(٢٥).

فسلطان المال قاهر "يقلب موازين الحياة، ويصنع للبشر المفاهيم والقيم، ويحدّد أنماط السلوك. ولما كان الناس أبناء مصالحهم فإنهم يحددون على هدي هذه المصالح سيرتهم في الحياة.

فمتى "رأوا النعم مزدحمة على إنسان ازدحموا على بابه، ومضوا يسبغون عليه أثواب الشرف ضافية ويصفونه بالنبل والفضل، فإذا انقضت نعمه انفضوا من حوله، ثم لم يشفع له عندهم شرفه القديم"^(٢٦)، وهذا ما قاله أوس بن حجر:

فإنّي رأيت النَّاسَ إلّا أقلّهم خفاف العهود يكثرُّون التَّنَقُّلا
بني أمّ ذي المالِ الكثير يرونه وإن كان عبداً سيد الأمر جحفا
وهم لمقلّ المالِ أولادُ علّةٍ وإن كان محضاً في العمومة مخولا^(٢٧).

وأما طرفة بن العبد، فقد تذرّ وشكى من طمع الإنسان وظلمه، واكله أموال الأطفال الصغار واليتامى، فهو لا يرحم حتى أقربائه وراحامه أحياناً، يقول طرفة:

وظلّم ذوي القربى أشدّ مضاضةً على المرءٍ من وقع الحسامِ المهنّد^(٢٨).

المال في حكمة زهروسيلة للحماية والذّب، يدافع به الإنسان عن نفسه وعن شرفه ورابطة تجمع أبناء الأسرة والمجتمع،

إن احتاج إلى ذلك، فالبخيل الذي يبخل بماله عن حلّ ومعالجة أمور الناس يعرض عنه إلى غيره، فالمال عنده أحد مصاديق المعروف الذي يجب أن يتصف به الإنسان كما قال الشاعر:

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل، بفضله على قومه، يُستغن عنه، ويُيم
ومن يجعل المعروف من دُونِ عِرضِهِ يفرّه، ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتم^(٢٩).

فمن كان له مال، وبخل به على نفسه وقومه، اعتمد على غيره ورآه الناس أهلاً للذمّ، والذي يبذل المال يسلم من شر البشر وإلى هذا أشار الشاعر الجُرْجُمي:

(٢٥) نور الدين، حسن جعفر، موسوعة الشعراء الصعاليك، (بيروت: رشاد برس، ٢٠٠٧م)، ج ٢، ص ٨٠.
(٢٦) طليعات، غازي والأشقر، عرفان، الأدب الجاهلي، ص ٢٥٩.
(٢٧) المصدر السابق، ص ٢٥٩.
(٢٨) القرشي، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص ٣٢٧.
(٢٩) الشنتمري، الأعلم، شعر زهير، تحقيق، فخر الدين، ص ٢٤.

وَإِذَا انْفَقَرْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَحَشِّعًا تَرَجُّو الْفَوَاضِلَ عِنْدَ غَيْرِ الْمُفْضِلِ
وَاسْتَغْنِ مَا أَغْنَاكَ رَبُّكَ بِالْغِنَى وَإِذَا تُصِيبُكَ خَصَاصَةٌ فَتَجَمَّلْ (٣٠).

فالبرجمي يحذر الإنسان صاحب الأنفة من أن يفقد الحكمة والصواب في أمور غنائه وفقره فيجره الفقر والفاقتة نحو ذلّ التكدي والطلب والسؤال من الناس لأنه منقصة حتى الحديث عنه، ولعله لأجل هذا قيل: إنَّ "الفقر رأس كلِّ بلاءٍ، وداعيةٌ إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسلبةٌ للمروءة، مذهبٌ للحياء. فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدأً من ترك الحياء، ومن فقد حياؤه فقد مروءته، ومن فقد مروءته، مُقت، ومن مقت ازدرى به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له،" (٣١).

والى هذا المضمون قد أشارت طرفة بن العبد وحذر من الفقر لأنه ذاقه طعمه المرّ الذي لا يجرع، إذ حياة الفقير تصوير سوداوية عند الأقرباء ناهيك عن الغرباء أو المتشتمين من الأغبياء وغيرهم حيث قال:

إِذَا قَلَّ مَالُ الْمَرْءِ قَلَّ بَهَاؤُهُ وَضَاقَتْ عَلَيْهِ أَرْضُهُ وَسَمَاؤُهُ
وَلَمْ يَمْشِي فِي وَجْهِهِ مِنَ الْأَرْضِ وَاسِعٍ مِنْ النَّاسِ إِلَّا ضَاقَ عَنْهُ فِضَاؤُهُ (٣٢).

وقريب من هذا ما هو في فكر ابن مقلة حول الناس والمال بعد مرض أصابه الدهر به حين كتب على باب داره هذه الأبيات بالخط العريض.

تَحَالَفَ النَّاسُ وَالزَّمَانُ فَحَيْثُ كَانَ الزَّمَانُ كَانُوا
عَادَانِي الدَّهْرُ نِصْفَ يَوْمٍ فَانْكَشَفَ النَّاسُ لِي وَبَانُوا
يَا أَيُّهَا الْمَعْرُضُونَ عَنِّي عُودُوا فَقَدْ عَادَ لِي الزَّمَانُ (٣٣).

ولعل هذا الذي جعل لقمان الحكيم أن يلوي أذن ابنه ناصحاً له، نصيحت أب طبن حكيم حينما قال له: "يا بني...أكلتُ الحنظل ودُقْتُ الصَّبْرَ فلم أَرَشِيئاً أَمْرَ مَنْ الْفَقْرُ، فَإِنْ انْفَقَرْتَ فَلَا تَحَدَّثْ بِهِ النَّاسَ، كَيْلَا يَنْتَقِصُوكَ، وَلَكِنْ اسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ، فَمَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَ اللَّهَ فَلَمْ يَعْطِهِ، أَوْ دَعَاهُ فَلَمْ يَجِبْهُ، أَوْ تَضَرَّعَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَكْشِفْ مَا بِهِ" (٣٤).

وأما أزمت الفقر عند صعاليك العصر الجاهلي فحدّث ولا حرج، فبعد ازدراء المجتمع الجاهلي لهم حملهم ذل الفقر على المخاطرة بأنفسهم والإغارة على اصحاب الثروة الذين خدعتهم الدنيا،

(٣٠) الضبّي، المفضّل، المفضليّات، تحقيق شاكراً، أحمد، (القاهرة: دار المعارف، ط٦، ١١١٩م)، ص ٣٨٤.

(٣١) عبد الرحيم، محمد، موسوعة المبدعون، الغنى والمال، (بيروت: دار الراتب الجامعية، ٢٠٠٠م)، ص ٦.

(٣٢) الفراج، سمير، شعراء قتلهم شعرهم، (مصر: مكتبة مدبولي، والأندلس للطباعة، ١٩٩٧م)، ص ١٣٠.

(٣٣) عبد الرحيم، محمد، موسوعة المبدعون، الغنى والثراء والمال، ص ١١.

(٣٤) المصدر السابق، ص ٧.

بل كان بعضهم رأس بلاء أولئك الحفاة المعدمين المال وهذا ما صرح به عروة بن الورد إذ قال:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمةً إن القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابةٌ وتجلّةٌ والفقير فيه مذلةٌ وفصوحٌ (٣٥).

المبحث الثامن: الجاهلي وحكمة السياسة

لا شك أنّ العصر الجاهلي، هو عصر بداوة ورحلات في الصحراء الشاسعة والفلوات، فالحياة البدويّة لا تعرف الاستقرار، ولا تعرف نظام المدن والحضارة، كما تخيله أفلاطون في جمهوريته المزعومة، " إذ عرّف الفضيلة بأنّها سيطرة الجانب العقلي من النفس على جانب الغضب...والعدل تحقيق فضيلة العقل، والعقل في المجتمع هو الحكّام والفلاسفة،" كما يرى أفلاطون (٣٦)، إنّ نظام المجتمع الجاهلي هو نظام القبيلة، وهذا النظام الاجتماعي يعتمد على أصحاب التجارب وعقلاء القوم والشعراء والوجهاء من الناس، ومن هنا ناط الشاعر السياسة وإدارة شؤون الحكم بأهل الرشد والعقل، هذا ما صرّح به الأفوه الأودي شاعر الجاهلية إذ قال:

لا يصلح النّاس فوضى لا سُرارة لهم ولا سُرارة إذا جهّالهم سادوا
تلقى الأمور بأهل الرّشد ما صلحت فإن تولوا فبالأشّار تنقأ
إذا تولّى سُرارة القوم أمرهم نما على ذاك أمر القوم فازدادوا (٣٧).

فالشاعر جعل مسؤولية النّاس على عاتق العقلاء وكبار القوم، أيضاً يرى التخلّي عن هذه المسؤولية يمهد الطريق لتوليّ الجهلاء والمترمتين أمور المجتمع، وحينئذ يعثبوا في الأرض وبمن فيها وبما عليها.

فتجلّت "حكمة السياسة عنده في الدعوة إلى السلم ونبذ سفك الدماء، حيث كان أعراب الجاهلية، يعتقد أنّ الحرب هي السبيل الوحيد لبقى الحياة، بل وغيرهم فإنّ الحروب التي كانت في أوروبا، كاليونان وفرنسة وإيطاليا وإنجلترا وإسبانيا وغزوات البرابرة الهون، والجرمان والوندال، أكثر من أيّ مكان آخر" (٣٨).

ففي العصور التي لا يسمع فيها إلا قعقة السلاح، وفكرة الحرب هي الفكرة السائدة على العقل البشري، يرى زهير الحل المناسب في السلم ونبذ الحرب وقتل الإنسان والإنسانية، فالحروب وويلاتها ودمارها كارثة إنسانية، وظاهرة سلبية يمكن تفاديها وعدم خوضها، يقول:

وما الحرب إلا ما علمتم ودقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

(٣٥) عروة، بن الورد، الديوان، (بيروت: دارالكتب العلميّة، ١٩٩٨م)، ص ٥٤.

(٣٦) طليعات، غازي والأشقر، عرفان، الأدب الجاهلي، ص ٢٦٢.

(٣٧) الأودي، الأفوه، الديوان، تحقيق التونسي، (بيروت: دارصادر للطباعة، ط ١، ١٩٩٨م)، ص ٦٦.

(٣٨) الشعبي، علي، الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهليّة والإسلام، بتصرف ص ١١٩.

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتضر إذا ضرر يثموها فنضرم^(٣٩).

إذا تتبّع الباحث الشعر الجاهلي، وجده زاخراً بالحكم، والنصائح، والمواعظ، والفلسفة التأملية، والفكر العميق والإيجابي، الذي يصلح ليكون في خدمة البشرية، والحضارة الإنسانية المعاصرة، إن صحّ التعبير. ففي حكم الأفوه الأودي وصايا يحث بها عن الإبتعاد من زمرة أصحاب الشرور والغي والظلم ويوجّه الوم إليهم فيراهم أساس أزمات المجتمع فنراه يقول:

إنّ النجاة إذا ما كنت ذا بصيرٍ من أجة الغي، ابعاداً فابعادُ

والخير تزدادُ منه ما ليقنت بهِ والشّرُ يكفيك منه قلّ ما زاد^(٤٠).

استخدام الشاعر لفظ "أجة الغي" يشعر بأضطراب الضلالة وخطورتها على المجتمع ويصر على معالجتها أو الإبتعاد عنها، وبين نفسه وغليناها إذا احلال الغواية والضلال محل العقل والصواب، ثم يوكّد على وحدة الكلمة والمجتمع ويقول لا يمكن الوصول إلى النوالعلو والإزدهار إلا بتمسك الناس بالقيم الإنسانية وتحكيم العقل واصحاب الرشد والاختصاص وأهل الخبرة حيث قال:

والبيت لا يبتنى إلا له عمدٌ ولا عماد إذا لم تُرس أوتادُ

فإن تجمّع أوتادُ وأعمدةٌ وساكنٌ بلغوا الأمر الذي كادوا

لا يصلحُ الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا ما جهالهم سادوا^(٤١).

المبحث التاسع: الحكم التربوية

التصق أدب الجاهليين بحياتهم اليومية التصاقاً وثيقاً، فالإنسان الجاهلي كان يفتبس خلقه من تجاربه من حنكته، ويجعلها سجلاً للقيم والأخلاق الإنسانية و الأدب ولا سيما الشعر منه، تعدد المناحي التربوية في فكر الشاعر الجاهلي، حيث أزدهر أدب الحكمة التربوية، فيما يعرف بـ الوصايا التي كانت تحفل بها الآداب القديمة والتي تقدّم معاني و عبارات تحفيزية ونماذج إيجابية وناجحة ودروساً في الحياة والسعادة والعمل وغير ذلك كما أكد هذا الشاعر البرجمي إذ قال:

أجْبِيلُ إنَّ أباكَ كاربَ يومه فإذا دُعيتَ إلى العَظائمِ فاعجَل

أوصيكَ إيصاءَ امرئٍ لكِ ناصِحٍ طِبِنِ بِرَيْبِ الدَهرِ غيرِ مُعَقَّلِ

اللهُ فَاتَّقِهِ وَأوفِ بِنَذْرِهِ وَإِذا حَلَفْتَ مُمارِياً فَتَحَلَّلِ^(٤٢).

(٣٩) القرشي، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، القرشي، ج ١، ص ١٩٤.

(٤٠) الأودي، الأفوه، الديوان، تحقيق التونسي، محمد، ص ٦٨.

(٤١) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٤٢) الضبي، المفضل، المفضليات، تحقيق شاكر، أحمد محمد، لضبي، ص ٣٨٤.

وقطعا هذا الشعر يعتبر من الأدب السامي والرفيع، فقد تغنى الشاعر بالفضائل الأخلاقية والقيم التربوية التي ربي عليها أبناءه وأوصاهم بامثالها وقصيدة عبد قيس بن خُفاف التُّرجمي من هذا القبيل، فهي حكمة تجلّى فيها الإيمان بالخالق، والنهي عن الحلف باسمه بالباطل، وترك الشر والأذى لأهله، ثم واصل حكمه ونصائحه قائلاً:

وَصِلِ الْمُوَاصِلَ مَا صَفَا لَكَ وَدُهُ وَاحْذَرِ جِبَالَ الْخَائِنِ الْمُتَبَدِّلِ
وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنَزَلٌ فَتَحَوَّلِ وَإِذَا تَزَكَّى السَّوَاءُ لَا تَحُلْ بِهِ
وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ شَرٍّ فَاتَّنِدِ وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ خَيْرٍ فَافْعَلِ
وَإِذَا تَشَاوَرَ فِي فُؤَادِكَ مَرَّةً أَمْرَانِ فَاِعْمِدِ لِلْأَجْمَلِ (٤٣).

فحذر الشاعر من نفاق وغدر البشر والإبتعاد عن أهل السوء وأماكنه ووعدهم بالاستعجال والتريث بأمور الشر والباطل والسعي إلى الخير بين الناس، والترفع عن مجالس السوء، والأخذ بتقوى الله، وعدم المداخلة في الجدل العقيم، وإبائه الضيم، والأخذ بأقرب الأمور إلى الصواب أثناء الشك، فهي وضعت الخطوط العريضة للسلوك التربوي في ذلك العصر. ولو أن الشاعر رسمها لابنه "جبيل" إلا أنها خارطة طريق تربوية. ومن هذا النمط التربوي نلاحظ قصيدة عبيدة بن الطيب حين قال:

ونصيحة في الصدر صادرة لكم ما دمت أبصر في الرجال وأسمع
أوصيكم بتقوى الإله فإنه يُعْطِي الرِّغَائِبَ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ
ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم إِنَّ الضَّغَائِنَ لِلْقِرَابَةِ تَوْضَعُ
واعصوا الذي يزجي المنام بينكم متنصحا، ذلك السَّامِ الْمَنْقَعُ (٤٤).

فلما أسنّ الشاعر وعمر طويلاً واكتسب الكثير من تجارب الحياة، جمع بنيه يحدثهم بمأثر باقية، ثم نصحهم بتقوى الله والاتحاد، وترك التناذب، والحذر من المنام والمنافق لأنه يسقي السم بالوشاية وأظهار الحب والود الخالص، وترك الحقد والعداوة لأنها تفكك أواصر القرابة والأخوة، ثم نوّه بفضل رايه وصوابه.

وأما الشاعر عمرو بن معديكرب فهو يرى أنّ القضايا التربوية بحاجة إلى أرضية خصبة صالحة للزراعة قال:

لقد أسمعنا لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تُنادي
ولو نارٌ نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد (٤٥).

(٤٣) المصدر السابق، ص ٣٨٤.

(٤٤) المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٤٥) الزبيدي، عمرو بن معدي كرب، شعره، (دمشق: مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٥م)، ص ١١٣.

المبحث العاشر: الصبر والحكم

امتزج إنسان الجاهلة بقساوة ومآسي وصعوبة الحياة، فهو إنسان متنقل، مترحل في صحراء جدى، ومجتمع بدوي دون نظام وقانون، قبلي وإبتدائي، ظالم ومظلوم، لذا تمخض من هكذا مجتمع، جماعة الصعاليك، فاتخذ هؤلاء الجماعة الصبر سلاحاً معنوياً لمواجهة الظلم المضاعف، أي ظلم الطبيعة وظلم الإنسان المستبد والمستعبد لغيره بالقوة والنزق والسفه والجهل والعناد، فلم يجد الإنسان ذو الأنفة انسب من المقاومة والصراع، وهذا ما فعله الشنفرى فرفض الضيم والذل واتخذ الفيافي والصحاري والوديان مأوى له، مستعيناً على قساوتها بالصبر والقناعة إذ قال:

أُديمُ مطالَ الجُوعِ حتى أُميتَهُ وأضربُ عنه الذِّكرَ صفحاً فأذْهَلُ
وأستفُّ تَرَبَّ الأرضِ كيلا يرى له عليّ مِنَ الطَّوْلِ امرؤٌ مُتَطَوِّلُ
ولكنَّ نفساً مُرَّةً لا تُفيمُ بي على الدَّامِ إلا ريثما أتحوَّلُ (٤٦).

لقد نقل التشرد الإنسان الجاهلي من مأوى القبيلة إلى الفيافي والوديان والصحراء، وجعله مجاوراً للغيلان والوحوش المفترسة، إلا أن ذلك المشرد استأنس موطنه الجديد وحمد الله وشكره عليه، إذ انتقل فيه من العبودية والاستبداد إلى حرية الطبيعة، ففتح ناظره على قساوت الصحراء ليصادقها ويتكيف معها قدر الإمكان، ومنها لينطلق إلى طموحاته ورغباته وآماله وأمنيّاته، ولذا هو إنسان مقاوم صبور لا يشتكي الجوع، ولا يخاف الفقر والفاقة، ولا يتأثر بحماقات وسخافات الجهلة من الناس ولا يخشى لومة لائم، فهو الذي يتحكّم بالصبر، ولا يتحكّم الصبر به كما قيل:

سأصبرُ حتى يعجزَ الصبرُ عن صبري وأصبرُ حتى يأذنُ اللهُ في أمري
وأصبرُ حتى يعلمَ الصبرُ أنني صبرتُ على شيءٍ أمرّ من الصبرِ
إصبر قليلاً وكن بالله معتصماً ولا تعجل فإن العجز بالعجل

الخاتمة والنتائج

استعرض البحث الشعر الجاهلي، ليقف عند الإيجابية والسلبية الفكرية، وتبيين أهمية الفكر السلبي أو الإيجابي، وما قدمه الشعر والشاعر في العصر الجاهلي لتنمية الحضارة البشرية، هادفاً تقريب الإنسان من الإيجابية وإبعاده من السلبية، ويمكن إجمال ذلك في الآتي:

- إن الأوهام والخرافة التي طغت على العقيدة الجاهلية، هي صنع وحشة الإنسان في الخلاء والصحراء، أيضاً وجود البيئة والطبيعة المشجعة لذلك.

(٤٦) الشنفرى، الديوان، إعداد وتقديم، طلال حرب، ص ٥٨.

- يظهر أنّ بعض الأوهام والخرافة أو أكثرها، هي من إبداع فكروخيال أعراب الجاهليّة، ولعلّه قد سبقوا غيرهم فيها من الأمم الأخرى.
- بعض الأساطير والأوهام والخرافة والخيال عند بدو الجاهليّة، قد مهّد وفتح الطريق لظهور أدب الأطفال فيما بعد .
- رحلات الشعراء وأسفارهم الداخليّة، واتصالهم بثقافات الملل المجاورة لهم، ساهم في نقل العقليّة الجاهليّة من مرحلة الأوهام إلى التهديد لتوسيع القيم الإنسانيّة التي قد تعرف عليها.
- السفه والنزق والجهل والأوهام والخرافة، لم تضمحل في فكر الإنسان تماماً، بل تحوّلت وتطوّرت من حال إلى أخرى أحياناً، وحتى بعد تمسكه بكثير من القيم الإنسانيّة والاصرار عليها.
- يظهر أنّ أكثر الشعركان يحفظ لوجود الحكم والمواعظ والتجارب والفكر فيه، لأنّه يعين الإنسان ويساعده على حياته البدويّة والعيش بشكل أفضل ويرشده إلى القيم البشريّة.
- الفلسفة في الشعر الجاهلي، هي فلسفة تأمليّة وخطرات ونزوات نفسيّة والأخلاق والقيم النبيلة والشريفة، أحاط بها فكر الشاعر الجاهلي من خلال تجربته التي عاشها وبيئته البدويّة.
- الشعر الجاهلي زاخر بالحكم والفكر الإيجابي العميق، والقيم الحميدة بخلاف ما عرف عنه.
- كان لشعراء الحكم كزهير بن أبي سلمى، ولبيد وطرفة بن العبد، والأفوه الأودي، وأكثم بن صيفي، وفُس بن ساعدة الأثر الأكبر في تنمية فكر الإنسان آنذاك، وحل مشاكله والأخذ بيده نحو الإيجابية والتهديب الأخلاقي.
- استخدم الشاعر أسلوب العتاب واللوم والتقريع والمبالغة في الشعر إهتماماً منه بالأخلاق والسلوك والعدالة الاجتماعيّة والفردية.
- استخدام المفردات الغامضة والمغمورة كما هو في حكم الأفوه الأودي.
- الفرق بين حكمة الشباب من الشعراء وحكمة كبار العمر منهم، فالصغار يدعون إلى الملذّات والتمتّع بها لأنّ العمر قصير بنظرهم، وكبار السن يدعون للتأمّل ويحذرون ممّا وراء الموت، وذلك لتجاربهم وحرصاً على انسانيّة الإنسان.
- يظهر أنّ الأكثرية من شعراء العصر الجاهلي قد آمنت بالبعث، والحشر، والحساب، والثواب والعقاب، بعد الموت، إذ تصوّر البعض منهم حياة هي تشبه الحياة الدنيا وهذا ما زاد تمسكهم بالقيم والفضائل في ذلك العصر.

المصادر والمراجع

- ١- ابن منظور، (د.ت) لسان العرب، بيروت: دارصادر.
- ٢- ابن القيم، محمد (٢٠٠٣م) منازل السالكين، بيروت: دارالكتاب العربي، ط٧.
- ٣- ابن شداد، عنترة، (د.ت). الديوان، تصحيح سعيد، أمين، مصر: المطبعة الغربية.

- ٤- أمين، أحمد، (٢٠١٢م). فيض خاطر، مجموعة مقالات أدبية، مصر: مؤسسة هنداوي، نسخة مصورة.
- ٥- الأودي، الأفوه، (١٩٩٨م). الديوان، تحقيق التونسي، محمد، بيروت: دارصادر للطباعة.
- ٦- الزبيدي، عمرو بن معدي كرب (١٩٨٥م). شعره، دمشق: مجمع اللغة العربية، ط٢.
- ٧- الشعبي، علي (٢٠٠٢م). الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- ٨- الشنتمري، الأعلم (٢٠٠٢م). شعر زهير، تحقيق، فخر الدين قباوة، دمشق: دار الفكر.
- ٩- الشنفرى، (٢٠٠٧م). ديوان الشاعر، إعداد طلال حرب، ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي.
- ١٠- الضبي، المفضل (١١٩٩م). المفضليات، ط٦، تح شاكر، أحمد محمد وعبد السلام هارون، القاهرة: دار المعارف.
- ١١- طليحات، غازي والأشقر، عرفان (٢٠٠٧م). الأدب الجاهلي، دمشق: دار الفكر، ط٢.
- ١٢- عبد الرحيم، محمد، (٢٠٠٠م). موسوعة المبدعون، الغنى والثراء والمال، بيروت: دار الراتب الجامعية، ط١.
- ١٣- عروة، بن الورد (١٩٩٨م). الديوان، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ١٤- الفراج، سمير (١٩٩٧م). شعراء قتلهم شعرهم، مصر، مكتبة مدبولي، والأندلس للطباعة والنشر، ط١.
- ١٥- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد (٢٠٠٥م) القاموس المحيط، ط٨، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- ١٦- القرشي، أبو زيد (١٩٩٩م). جمهرة أشعار العرب، بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- ١٧- لبيد، ابن ربيعة العامري (د.ت). الديوان، بيروت: دارصادر.
- ١٨- محمد، سراج الدين (٢٠٠٠م). موسوعة مبدعون، الحكمة، بيروت: دار الراتب الجامعية.
- ١٩- المنجد في اللغة والأعلام (١٩٧٣م). بيروت: دار الشروق.
- ٢٠- الموقع، عالم الأدب، مدونة الكترونية،
<https://adabworld.com>
- ٢١- نورالدين، حسن جعفر (٢٠٠٧م). موسوعة الشعراء الصعاليك، بيروت: رشاد برس للطباعة والنشر.
- ٢٢- وهبة، مراد (٢٠٠٧م). المعجم الفلسفي، (القاهرة: دار قباء الحديثة).